# السنة الأولى ماستر

**التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830**

# المقياس: العلاقات الجزائرية الأوربية 1

# المحور الأول: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية

**2- المناطق التي تعرضت للغزو الأسباني**

**أ.د. عبد القادر فكاير**

نتعرض في هذا الموضوع إلى المناطق التي استطاع الأسبان الوصول إليها من الأراضي الجزائرية، سواء تمكن الجيش الأسباني من احتلالها أم لم يتمكنوا . فقد تمكنوا من احتلال بعض المدن الساحلية لفترات متفاوتة من الزمن ، وفشلوا في السيطرة على مدن ساحلية أخرى رغم جديتهم في مسعاهم التوسعي. والملفت للانتباه أن الإسبان لم يتمكنوا من التغلغل إلى المناطق الداخلية من البلاد . باستثناء وصولهم إلى مدينة تلمسان مرورا ببعض المناطق المؤدية إليها.

**أولا : في القرن السادس عشر :**

تميز هذا القرن بتعرض الجزائر إلى غارات أسبانية عديدة ، نجحوا في بعضها في احتلال بعض المدن وفشلوا في أخرى .

**1 ـ مناطق نجحوا في احتلالها بالقوة العسكرية :**

لقد استعمل الأسبان طرقا مختلفة في فرض سيطرتهم على المدن الساحلية الجزائرية، من أهمها طرقتان رئيسيتان هما : أسلوب القوة العسكرية ، وأسلوب فرض المعاهدات على زعماء المناطق التي وصلوا إليها ، تحت طائلة التهديد .

**ـ احتلال المرسى الكبير 1505:**

قاد الحملة الدون دييغو القرطبي (Don Diego de Cordoba)، وعندما وصلت قواته إلى المرسى الكبير وجدت عددا يتراوح بين 400 و 500 من المرابطين. ورغم قلة عددهم فإنهم حاولوا منع الغزاة من الإنزال. لكن الاختلاف في امتلاك العدد والعدة ، مكن الجنود الأسبان من النزول إلى البر ومحاصرة الحصن ثم احتلاله. وانتهت هذه المعركة بعقد هدنة، مكنت أفراد الحامية من الانسحاب، بعد أن جردهم الأسبان من أسلحتهم.ثم سيطر الأسبان على المدينة، وعملوا على تغيير معالمها الإسلامية ، إذ تم تحويل المسجد إلى كنيسة، ثم أدخلوا بعض الإصلاحات على الحصن وقاموا بتنصيب المدافع على أسواره. وذلك خوفا من تعرضهم لعمليات انتقامية يشنها سكان المدينة وضواحيها.

**ـ** **احتلال وهران** **1509**: بناء على التقرير تجسسي الذي أرسله الجاسوس فيانيلي الذي اعتبرها من أشهر مدن بلاد المغرب لغناها بالأسواق والتجارة ، عزم الحكام الإسبان على غزوها**.** فتحت إلحاح هذا الكاردينال صدر بيان ملكي في ديسمبر 1508يوافق فيه على غزوها. ولهذا الغرض جمع الكاردينال وبيدرو نافارو (Pedro Navarro)القوات العسكرية الموجودة في خارج أسبانيا وداخلها في مدينة قرطاجنة ، شارك في الحملة كبار القادة العسكريين منهم والدون دييغو دي فييرا(Don Diego de Verra)**.**

أقلع الأسطول يوم 16 ماي 1509**،** يحمل عشرة آلاف من المشاة وأربعة آلاف حصان وثمانمائة متطوع . ولما علم السكان بالخطر الذي يستهدف مدينتهم اعتصموا في المرتفعات وسعوا إلى الدفاع عن مدينتهم.غير أن التفوق العددي للأسبان ونظام سلاح المدفعية مكنهم من إجبار المقاومين على التراجع نحو المدينة للاحتماء وراء أسوارها.وتمكن الأسبان من الدخول إلى المدينة من أحد .وقاموا بقتل كل شخص وجدوه أمامهم، ولم يسلم من أذاهم حتى النساء والأطفال ، وقد أدت هذه الحملة إلى هلاك أكثر من أربعة آلاف شخص، وأسر أكثر من خمسة آلاف.

**ـ** **احتلال بجاية 1510:**

كانت بجاية في تلك الأثناء تعيش أجواء من الفتن العائلية على الحكم بين الأمراء الحفصيين،ووقوع الحروب بينهم.وفي أول جانفي 1510 غادر بيدرو نافارو جزيرة إبيزا (Ibiza ( يقود أسطول على متنه أكثر من 10 آلف جنديومعدات أخرى ومؤن. ووصل إلى بجاية يوم 5 من الشهر. ولما ظهرالأسطول أمام المدينة سارع أهلها إلى إعلان حالة الإستنفار ، وجمع قواتهم وأسلحتهم. تمكنت فرق الجيش من الإنزال في مكان قرب المدينة تحت يدعى حاليا زغواط(Egouades). ثم وجه بيدرو نافارو إنذارا إلى الأمير عبد الرحمن بن السلطان عبد العزيز، يطلب منه تسليم المدينة . لكن الأمير رفض ذلك التهديد. عندئذ احتل الإسبان المواقع المرتفعة للإشراف على المدينة، ثم شرعوا في قصف المدينة بالمدافع، ورد أهلها عليهم بالمثل ، واستمر القصف المدفعي المتبادل لمدة عشرة أيام .

وقد حاول السكان رد الغزاة. غير أن سوء التنظيم، وقلة الاستعداد والتدريب القتالي، رغم التفوق العددي ؛ فإن فعالية نوعية السلاح الأسباني مكنت الأسبان من احتلال مواقع جديدة تشرف على المدينة ، اضطر إثرها بعض الجنود المسلمين إلى التراجع نحو أسوار المدينة للإحتماء بها ومواصلة المقاومة من ورائها. وقد ذهب ضحية هذا الغزو حسب تقدير ابرهيم المريني أربعة آلاف وخمسمائة وخمسون شهيدا. أما عن الخسائر البشرية الأسبانية فقد ذكرت بعض المصادر الغربية أنهم قد فقدوا بعض الرجال.

**2 ـ مناطق فرض الأسبان عليها معاهدات الولاء:**

تعرضت مدن أخرى وإمارات إلى نفس المصير إذ وجدت نفسها مجبرة على توقيع معاهدات الولاء للأسبان والتحالف مع الأسبان وتتمثل فيما يلي:

**ـ مدينة تنس:** كانت مدينة تنس أول المدن التي أعلنت ولاءها للأسبان ، فبعد احتلال المرسى الكبير، وبينما كان هؤلاء يعدون أنفسهم لاحتلال مدينة وهران؛ وقعت أزمة داخلية بين أمراء العائلة الحاكمة في تلمسان. فإثر وفاة الملك محمد الثابتي منذ سنة 1503، آل الحكم لابنه الأكبر عـبـد الله. وكان له شقيقان، وهما :أبو زيان ويحي اللذان تآمرا على أخيهما الملك،على اغتياله ، لكن اكتشاف المؤامرة؛ أدى إلى إلقاء القبض على أبي زيان، وتم وضعه في السجن، بينما تمكن أخوه يحي من الفرار مستنجدا بالأسبان.وقد وجد هؤلاء في هذا النداء؛ فرصة لهم لتوسيع نفوذهم ، فساعدوه على تنصيب نفسه حاكما على تنس، على أن يكون تحت نفوذهم ملتزما بدفع الضرائب لهم. ولما مكنوه من السيطرة على المدينة ؛ زودوه بقوات عسكرية تساعده على تأمين موقعه وذلك خــلال سنة 1508.

**ـ** **مدينة الجزائر :** كانت مدينة الجزائر تعيش تحت سلطة يديرها مجلس متكون من أعيان المدينة تحت حماية الثعالبة ، يتولى حكمها الشيخ سالم التومي. وكان الملك فيرديناند قد أمر بيدرو نافارو؛ التقدم بأسطوله نحو مدينة الجزائر قصد احتلالها، لأنها كانت في نظره تهدد السواحل الأسبانية. وقد اضطر أعيانها ترضية الأسبان، بإبرام اتفاق معهم يحفظ لهم سيادتهم على المدينة ، ويدفعون لهم الضرائب. ففي جانفي 1510 ، توجه وفد من أعيان المدينة برئاسة سالم التومي إلى مدينة بجاية لمقابلة بيدرو نافارو للتباحث معه بغية التباحث معه بهدف التوصل إلى اتفاق. وفي 13 جانفي، وقع الطرفان اتفاقا لمدة عشر سنوات. و أهم ما جاء فيه، الاعتراف بسيادة الملك الكاثوليكي عليهم، ودفع للأسبان جزية سنوية، وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين، على أن يتوجه وفد من أهل المدينة إلى أسبانيا لعقد الاتفاق مع حكومة الملك. كما اضطر ابن التومي على الموافقة بتسليمه للأسبان أكبر الجزر الصخرية، التي كانت تدعى اصطفلة (Stofla)، بنى فيها الإسبان القلعة، التي عرفت بعد ذلك باسم صخرة الجزائر (Penon de Argel) .

**ـ مستغانم :** لقد كان لموقع مدينة مستغانم القريب من مدينة وهران، أن جذب إليها أنظار الأسبان، بعد احتلالهم لمدينة وهران وإثر ضعف السلطة المركزية في تلمسان ، أخذت بعض القبائل تعلن عصيانها ، وتسيطر على ضواحيها. لقد أدت تلك الأوضاع إلى تعرضها للتهديد الأسباني ، مما أجبر شيوخ المدينة وأعيانها إلى توقيع معاهدة استسلام مع حاكم وهران الأسباني ، وذلك 26 ماي 1511 يلتزم بموجبها شيوخ وسكان مدينة مستغانم وكذلك مزغران بعدة شروط منها: أن يكونوا في خدمة الملك والملكة بكل وفاء . أن يدفعوا الضرائب والرسوم التي كانوا يدفعونها لتلمسان في أول جوان من كل عام لأمين مخزن مدينة وهران . إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين . أن يزودوا مدينة وهران والمرسى الكبير بالمواد الغذائية والسلع الأخرى ، بأسعارها العادية .

**ـ مملكة تلمسان**: ولما أصبحت مملكة تلمسان يحيط بها الخطر الأسباني من كل جهة ، وتدخل الأسبان في الاضطرابات الداخلية للمملكة ، مما أدى بحكامها إلى سلوك نفس الطريق . إذ وقعوا مع أسبان مدينة وهران معاهدة لمدة خمـس سنوات ، وذلك في 20 جوان من نفس 1511 . كما أبرم باي تونس كذلك معاهدة مع الأسبان ، رغم فشلهم في احتلال جزيرة جربة خلال السنة المذكروة . وبهذه الطريقة تمكن الأسبان حتى سنة 1511، أن يتمركزوا في مواقع حساسة في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ، عبر عنها أحد الكتاب الغربيين بالعبارة التالية : >> وباحتلال طرابلس في سنة 1511، فإن أسبانيا تحكمت في نصف دائرة من الأرض كانت تراقبها بواسطة مواقع عسكرية محصنة توزعت عبر أعالي الشمال الإفريقي<< .

**3 ـ مواقع فشلوا في الاحتفاظ بها رغم دخولهم إليها :**

**ـ فشل الإسبان في احتلال شرشال** **1531**: كان سكان المدينة قد أعلنوا ولاءهم لخير الدين سنة 1528، فقام بتحصينها وشيد رصيفا آخر في الميناء وتوسعيه. وجاء غزوالأسبان لمدينة شرشال حينما أسند الإمبراطور قيادة الحملة إلى البحار الجـنوي أندري دوريا AndréDoria)).وانطـلق الأسطول الأسباني من جـنوة في شهر جويلية ، المتألف من ثمانية وثلاثون سفينة ، يحمل ألف وخمسمائة رجل. ومعدات حربية . فأعد خير الدين العدة لمواجهته ، فتحرك بأسطوله نحو شرشال .

ولما وصل دوريا إلى المدينة أنزل قواته بالقرب منها، دون مقاومة تذكر. ودخل الجنود في أرجاء المدينة وضواحيها ، وانضم إليهم حوالي ثمانمائة أسير مسيحي بعضهم كان يعمل في بناء الرصيف. وكان رجال الحامية المعتصمين بالقلعة يراقبون تحركاتهم ، من القلعة ، ثم هاجموهم بمساندة المهاجرين الأندلسيين وسكان المناطق المجاورة. وتمكنوا من القضاء على أربعمائة جندي، وأسر منهم ستمائة جندي آخر. ولما أدرك قائد الحملة خطورة الموقف، أسرع مع بعض جنوده إلى البحر للالتحاق بأسطوله. اضطر دوريا إلى الفرار ومن معه من الأسرى الذين تمكنوا من الالتحاق به ، وفي هذه الظروف ظهرت في الناحية الشرقية سفن خير الدين ، البالغ عددها عشرين سفينة شراعية . ولما حل خير الدين بالمدينة ، استقبله أهلها وسلموه ستمائـة أسيرا، كان من بينهم أحد الضـباط الكبار**.**

**ـ انسحاب الأسبان من هنين بعد تخريبها (1531-1534):** كانت مدينة هنين الساحلية تشكل مركزا تجاريا هاما بالنسبة لمملكة تلمسان. وكانت بعض القبائل المتذمرة من ولاء حكام تلمسان للأسبان تتعرض للقوافل التجارية المسيحية القادمة من هنين.

نتيجة لهذه الاعتبارات، شن حملة على مدينة هنين بقيادة الدون ألفارو دي بازان(Don Alvaro de Bazane ) الذي خرج في أوت 1531، من مالقة على رٍأس ثلاثة عشر سفينة، تحمل تجهيزات ومعدات مختلفة ، ومؤونة غذائية ، توقف في وهران، حيث تزود 250 جنديا. دافع سكان هنين بكل قوة، تمكنوا من القضاء على 45 جنديا أسبانيا وجرح 100 آخر. غير أن عنصر المفاجأة، واختلال ميزان القوى رجح كفة الانتصار لصالح الأسبان، الذين احتلوا إثر ذلك ميناء المدينة وقصبتها، ثم تعرضت المدينة إلى النهب. وأقام فيها ألفارو حامية أسبانية تتكون من 700رجل، وأربعة مدافع ذات عيار كبير صادروها من قصبة المدينة. قرر ملك تلمسان تحريرها ، فحاصرها. ولما اشتد الحصار، اضطر الأسبان إلى إخلاء المدينة في نهاية عام 1534 ، لكنهم قبل أن يغادروها، دمروا كل معالمها، كالأبراج والأسوار والمساجد والميناء .

**ـ فشل الأسبان في الاحتفاظ بمدينة عنابة :**

في 16أوت 1535 ، كلف الإمبراطور الماركي دي مونديخار، باحتلال عنابة وهو في طريقه إلى أسبانيا بأسطوله المتكون من 25 سفينة. فتحرك دون ألفارو دي بازان (don Alvaro de Bazane) الذي سبق مونديخار، ومعه 15 سفينة في طريقه إلى عنابة، وما كادت سفنه تصل إلى مشارفها ، حتى بادرته بقية أفراد الحامية بإطلاق نيران مدفعيتها. لما وصل مونديخار ببقية الأسطول أنزل قواته، ثم شرع في احتلال القلعة والمدينة ، وكان بعض سكانها قد غادروها مع خـير الدين نحو الجزائر. وبعدما تمكنوا منها، غادرها دي مونديخار وترك فيها 800 جندي لحمايتها. ولم يمكث الجنود الأسبان بعنابة إلا خمسة أعوام فقط حيث تمكنت القوات الجزائرية من محاصرتهم ، وأجبرتهم على الانسحاب سنة 1540. وجاء رد الإمبراطور سريعا لضرب مدينة الجزائر في السنة الموالية .

**ـ فشل حملة شارلكان على مدينة الجزائر1541** : تعد هذه الحملة من أشهر الحملات الأسبانية التي تعرضت لها مدينة الجزائر. فرغم قيادتها من طرف الإمبراطور المذكور ومشاركة العديد من الجهات الأوربية ، حيث كانت الاستجابة واسعة للنداء الذي وجهه الإمبراطور، إلا أن الحملة باءت بالفشل الذريع، وعاد الأمبراطور من حيث أتى. ولا شك أن هذه النكبة ظلت عالقة في ذهنه إلى آخر يوم في حياته . وتعود أسباب هذه الهزيمة إلى ثلاثة أسباب رئيسية هي:

1 ـ استصغار الإمبراطور بشأن الجزائر واعتقاده بتحقيق النصر.

2 ـ حسن قيادة حسن آغا وشجاعته في العمل على رد العدوان ، فلم يترك السكان يستسلمون لليأس . وذكر أنه قد ركب حصانه وطاف في المدينة يشجعهم. وقد استجابوا للأمر فصمدوا وتضامنوا أمام أعدائهم .

3 ـ فعل الزوبعة البحرية التي أتت على تحطيم 150 سفينة من أحجام مختلفة .

**ـ فشل الأسبان في احتلال مستغانم (1543-1558):** منذ أن تمكن خير الدين افتكاك مدينة مستغانم من النفوذ الأسباني سنة 1518، أصبحت قاعدة رئيسية للدولة الجزائرية لقربها من وهران. وقد سعى حاكم وهران "دالكوديت" احتلالها ، فقام لهذا الغرض بثلاث حملات على مستغانم ، باءت كلها بالفشل.

قاد حاكم وهران ثلاث حملات عسكرية على مدينة مستغانم وقعت الحملة الأولى في شهر مارس 1543، ولكن دالكوديت أجبر على الانسحاب لوصول تعزيزات كبيرة بعث بها حسن حسن آغا، وتعرضه لهجمات القبائل العربية من بينهم فرسان منطقة مديونة، وخلال صائفة عام 1547 حاول دالكوديت من جديد احتلال مدينة مستغانم ، فحاصرها، غير أن دعم حامية تلمسان لها أجبرت الكونت على رفع الحصار ، ومثلما حدث له خلال سنة 1543، تكرر هذه المرة.

أما المحاولة الثالثة ، فوقعت خلال سنة 1558، فحاصرها . ولما وصلت الإمدادات اضطر إلى الانسحاب ، فتعقبه رجال الحامية إلى غاية بلدة مزغران ، حيث وقعت المعركة لقي دالكوديت في هذه المعركة مصرعه إلى جانب قتل وأسر أفراد جيشه، وقد خلد هذه المعركة الشاعر الشعبي الأكحل بن خلوف في قصيدة عنوانها '' قصة مزغران معلومة''.

**ثانيا ـ بعد القرن السادس عشر :**

لقد استمر الأسبان في سعيهم إلى النيل من الجزائر كلما سمحت لهم الفرصة، ولم يشهد القرن السابع أعمال عدوانية مثل التي حدثت في القرن السادس عشر نظرا لتعاظم شأن الجزائر، والظروف الصهبة التي شهدتها أسبانيا على الصعيد الداخلي والخارجي. غير أنها في القرن الثامن عشر جددت حروبها العدوانية على مدينة الجزائر.

**1 ـ فشل مخطط لاحتلال مدينة الجزائر1601:** جاء في تقرير إيطالي يدعى جيرومينو كونيستاجيو(Geromino Conestaggio) من جنوة بتاريخ 5 نوفمبر 1601، خطة أعدها جاسوس فرنسي يدعى روكس( Roux)، الذ ي لاحظ أن ميناء الجزائر تخف حراسته خلال فصل الصيف، ولم يبق به سوى ألفي جندي. وكان قد قدم هذا المشروع إلى خوان أندري دوريا. وقام هذا الأخير بعرض المشروع على فيليب الثالث الذي اقتنع بالمشروع ، ودعا دوريا الشروع في إعداد الحملة. فاجتمعت القوات في جزيرة مايورقة .

وفي 28 أوت 1601 تحرك الأسطول يتكون من 70 سفينة، على متنها أكثر من 10 آلاف جندي. كان على رأسه مانويل دي بيغا( Manuel de Vega). وفي 30 من الشهر اقترب الأسطول من السواحل الجزائرية ، ولما كان على بعد 30 كلم من مدينة الجزائر ، هبت ريح شديدة أجبرت دوريا على التخلي عن تنفيذ خطته ، وفضل الانسحاب.

**2 ـ إعادة احتلال وهران 1732 :** ظل الإسبان حريصين على إعادة احتلال مدينة. ولتنفيذ هذا المخطط أصدر الملك فيليب الخامس منشورا في 6 جوان 1732 يطلب فيه الدعم الداخلي ومن الدول المسيحية لاسترجاع المدينة. ولهذا أعد الأسبان في ''أليكانتي'' جيشا يتألف من 30 ألف رجل. وفي 15 جوان أقلع الأسطـول نحو وهران تحت قيادة "الدوق دي مونتيمار"(Duc de Montemar)، وفي 29 من الشهر تم الإنزال في عين الترك، في مكان شبه خالي من القوات العسكرية، ثم تقدمت المرسى الكبير ووهران، وواجهتها القوات الجزائرية في عدة معارك. ونظرا لعدم تكافؤ القوتين وتأخر وصول الدعم من الجزائر، اضطر الباي بوشلاغم إلى إخلائهما من السكان والجنود ،وحسب أحد التقارير أن الأسبان وجدوا بها 138 قطعة مدفع، من بينها 87 قطعة من النحاس.

**3 ـ حملة أوريللي على مدينة الجزائر1775** : قرر الملك شارل الثالث شن حملة ضد مدينة الجزائر، فجهز حملة كبيرة تتألف من 22600 مقاتل، على متن أسطول تعداده 400 سفينة حربية ونقل، وعتاد حربي ومؤن وذخيرة . وقد حظي الملك الأسباني بتأييد الكنيسة وبعض الدول الأوربية. عين الملك دون ''بيترو كاستخون'' قائدا للأسطول ، بينما تولى قيادة الجيش الأميرال الأيرلندي الأصل أوريلي.

انطلقت الحملة من قرطاجنة في 23 جوان، ووصلت إلى عاصمة الجزائر في أول جويلية. وبدأ الإنزال في مصب وادي الحراش في 8 جويلية، سارعت سلطات الجزائر لاستقدام التعزيزات العسكرية من البيالك.وأرغم الأسبان على الانسحاب ، والالتحاق بسفنهم، تاركين نحو 100 مدفع، وآلات حربية أخرى، وحوالي 3000 قتيل، و 466 جريح. وذلك بعد معركة دامت عشرة أيام .

**4 ـ حملتا الدون أونطونيو بارثيلو سنة 1783 و1784** :لما رفضت الجزائر عرض الصلح، وجه الملك شارل الثالث أسطولا في صيف 1783، يقوده ""بارثيلو"، يضم أكثر من 80 سفينة، وفي أول أوت باشرت قصفها على مدينة الجزائر، وفي يوم 4 أوت اضطر البحارة الجزائريون إلى الخروج لمقاومة الأسطول الأسباني، وأجبروه على التراجع بعيدا، ولم تتمكن قذائف مدفعيتهم من إصابة هدفهم. استمرت المعركة إلى غاية يوم 9 من الشهر. وقد أحدثت القذائف خسائر في المباني ، لكنها لم تمس الحصون البحرية إلا بأضرار خفيفة ، وبلغ عدد الموتى من المسلمين 46 شخصا. وبعد انسحاب القوات الأسبانية شرعت السلطات الحاكمة في ترميم المباني واتقاء لأي هجوم آخر.بنت حصنا أكثر مناعة .

وفي جويلية سنة 1784 ، أرسل الإسبان أسطولا آخر تحت قيادة بارثيلو مرة أخرى، ضم 130 سفينة حربية. بدأت المعركة في 12 جويلية واستمرت أيام، وأجبر الأسطول الأسباني على الانسحاب مرة أخرى ويعود ذلك لجملة من الأسباب منها :

1 ـ الاستعداد الجيد من قبل الجزائريين، بإنشائهم لحصون وقلاع جديدة ، وبناء السفن .

2 ـ القصف المدفعي الجزائري أجبر السفن الأسبانية على البقاء بعيدا عن المدينة .

3 ـ خروج سفن الأسطول الجزائري وهي تحمل المدافع الكبيرة، فأرغمت الأسطول الأسباني على البقاء بعيدا عن المدينة، مما جعل قذائفه تسـقط في البحر، ولا تصيب المدينة.

4 ـ مشاركة المتطوعين من الرجال في القتال، فكانوا وقت الخروج لملاقاة العدو، تجد الناس يزدحمون على الركوب معهم ، ولا يصل لذلك إلا الرجل الشجاع .